الفقيه مكحول الشامي

أعـلام الفقهـاء

الفقيه مكحول الشامي

في إحدى قري مدينة كابل بأفغانستان ولد الفقيه الزاهد التابعي الجليل أبو عبد الله مكحول بن عبد الله الشامي، ولم يطل به المقام في تلك البلد وأراد الله به خيرًا فوقع في سبي المسلمين الفاتحين بقيادة القائد سعيد بن العاص في أثناء فتح بلاد السند، ثم وهب هذا الطفل لامرأة من هذيل فأعتقته، فأقبل على تعلم الفقه والحديث، ونبغ فيهما، وسمع الحديث والفقه من أنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وأبا هند الداري وغيرهم، وكان مقامه بدمشق. وأسند عن جلة كبيرة من الصحابة وكبار التابعين منهم أنس ابن مالك وواثلة بن الأسقع وأبو أمامة الباهلي وأبو هند الداري وروى عن أبي ثعلبة الخشنى وحذيفة بن اليمان وعبدالله بن عمربن الخطاب وعبدالله بن عمرو بن العاص وأبي أيوب الأنصاري وأبي الدرداء وشداد بن أوس وأبي هريرة في آخرين [1].

وكان عالمًا بالفقه ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا، وكان لا يفتي حتى يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هذا رأي والرأي يخطئ ويصيب.

وكان في لسانه عجمة ظاهرة، ويبدل بعض الحروف بغيره.

وقد أثنى عليه كثير من العلماء والفقهاء فقال الزهري: العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام [2].

(1) ترجمته في طبقات ابن سعد 7 453 والمعارف: 452 وطبقات الشيرازي: 75 وحلية الأولياء 5: 177 والجرح والتعديل 4/1: 407 وتذكرة الحفاظ: 107 وميزان الاعتدال 4: 177 وتهذيب التهذيب 10: 289 وحسن المحاضرة 1: 119 والشذرات 1: 146.
(2) وفيات الأعيان، 5 / 282.

مواقف من حياته رحمه الله:

خير من البقاء مع من لا يؤمن شره:

حدث عبد ربه بن صالح قال: دخل على مكحول في مرضه الذي مات فيه فقيل له: أحسن الله عافيتك أبا عبد الله فقال: ألا لحاق بمن يرجى عفوه خير من البقاء مع من لا يؤمن شره شياطين الإنس وإبليس وجنوده.

ومن لا يحب الجنة!:

عن ابن ثوبان أنه سمع أبا عبد ربه يقول لمكحول: يا أبا عبدالله أتحب الجنة؟ قال: ومن لا يحب الجنة! قال: فأحب الموت فإنك لن ترى الجنة حتى تموت.

فاطلب بما بطن من علم الإسلام محبة وزلفى:

عن سفيان قال: كتب ابن منبه إلى مكحول إنك امرؤ قد أصبت بما ظهر من علم الإسلام شرفًا فاطلب بما بطن من علم الإسلام محبة وزلفى.

أتراك مرابطًا العام!:

عن مكحول أنه عاد حكيم بن حزام بن حكيم فقال: أتراك مرابطا العام؟ قال: كيف تسألني عن هذا وأنا على ذي الحال؟! قال: وما عليك أن تنوي ذاك فإن شفاك الله مضيت لوجهك وإن حال بينك وبينه أجل كتب لك نيتك.

الوضوء بركة:

عن بركة الأزدي قال: وضأت محكولاً فأتيته بالمنديل فأبى أن يمسح به وجهه ومسح وجهه بطرف ثوبه فقال: الوضوء بركة وأنا أحب أن لا تعدو ثوبي.

عمن أخذت هذا!:

عن مكحول قال: اجتمعت أنا والزهري فتذاكرنا التيمم فقال الزهري: المسح إلى الآباط فقلت: عن من أخذت هذا؟ قال: عن كتاب الله إن الله

تعالى يقول:{فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ } [المائدة: ٦] فهي يد كلها. قلت: فإن الله تعالى يقول:{ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا } [المائدة: ٣٨]، فمن أين تقطع اليد؟ قال: فخصمته.

الآن نعظ ويسمع منا:

عن مكحول قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عبدالله قوله عز وجل:{عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ } [المائدة: ١٠٥]، قال: يا ابن أخي لم يأت تأويل هذه بعد إذا هاب الواعظ وأنكر الموعوظ فعليك حينئذ نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت يا أخي الآن نعظ ويسمع منا.

هذا إبليس يرجو رحمة الله:

عن مكحول قال: بينا امرأة من الحي يقال لها الفارعة بنت المستورد قائمة تتعبد إذا هي بإبليس ساجدًا على صفاة تسيل دموعه على خديه كسريح الجنين فقالت له: يا إبليس ما يغني عنك طول السجود فقال: أيتها المرأة الصالحة بنت الشيخ الصالح أرجو إذا أبر بي قسمه أن يخرجني من النار قال أبو عمر الدروي: هذا إبليس يرجو رحمة الله فكيف نحن عبيد الله.

فحرمت البكاء سنة:

قال مكحول: رأيت رجلاً يصلي وكلما ركع وسجد بكى فاتهمته أنه يرائي ببكائه فحرمت البكاء سنة.

يتعلم التواضع:

عن ابن جابر قال: أقبل يزيد بن عبدالملك بن مروان إلى مكحول وأصحابه فلما رأيناه هممنا بالتوسعة له فقال مكحول: مكانكم دعوه يجلس حيث أدرك يتعلم التواضع.

قال سعيد بن عبد العزيز: كنت جالسًا عند مكحول فاستطال عليه رجل فقال مكحول ذل من لا سفيه له.

انصحنا رحمَكَ الله:

قدمَ عطاءٌ الخراسانيُّ على الخليفة الأموي هشامٍ بن عبد الملك فنزلَ على مكحولٍ فقالَ لمكحولٍ: هاهنا أحدٌ ينصحنا؟ قال: نعم، يزيدُ بنُ ميسرةَ، فأتَوهُ فقال عطاءٌ: انصحنا رحمَكَ الله؛ قالَ: نعمْ، كانتِ العلماءُ إذا عَلِموا عمِلوا، فإذا عملوا شُغِلوا، فإذا شُغِلوا فُقِدوا، فإذا فُقِدوا طُلِبوا، فإذا طُلبوا هَرَبوا؛ قال: أعدْ عليَّ، فأعادَ عليهِ فرجعَ عطاءٌ ولم يلقَ هشاماً.

لو أن سليمان بن داود عندي:

عن مكحول قال: بينا سليمان بن داود على بساط من شعر وأصحابه حوله إذ أمر الريح فاستقلته وسارت الجن والإنس أمامه والطير تظله إذا حراث يحرث على جانب الطريق قال: فقال الحراث: لو أن سليمان بن داود عندي كلمته بثلاث كلمات فأوحى الله تعالى إلى سليمان بن داود أن ائت الحراث قال: فركب على فرس له حتى أتاه قال: يا حراث أنا سليمان فقل ما أردت أن تقول قال: وما علمك أني أردت أن أقول قال: الله أعلمني قال: أشهد له بذلك قال والله إلا أني رأيتك فيما أنت فيه فقلت: والله ما سليمان في لذة لذها أمس ولا في نعيم نعمه وأنا في تعب تعبته أمس وفي نصب نصبته إلا سواء لا سليمان يجد لذة ما مضى ولا أنا أجد تعب ما مضى قال: وأخرى قلتها قال: وما هي؟ قلت: سليمان يموت وأنا أموت قال: صدقت قال: قلت يا سليمان لكني قلت كلمة طيبت بها نفسي قلت: سليمان يسأل غدًا عما أعطي وأنا لا أسأل قال: فخر سليمان ساجدًا على فرسه يبكي وهو يقول: يا رب لولا أنك جواد لا تبخل لسألتك أن تنزع مني ما أعطيتني قال: فأوحى الله تعالى إليه يا سليمان ارفع رأسك فإني لم أنعم على عبد لي نعمة

فتكون تلك النعمة رضا فأحاسبه عليها [1].

من كلامه رحمه الله:

عن مكحول قال: من لم ينفعه علمه ضره جهله. اقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فلست تقرأه.

عن مكحول قال: لا يؤخذ العلم إلا عن من شهد له بالطلب.

عن مكحول قال: لأن تضرب عنقي أحب إلي من أن ألى القضاء ولأن ألى القضاء أحب إلى من بيت المال.

عن مكحول قال: أرق الناس قلوبًا أقلهم ذنوبًا.

قال مكحول:من أحب رجلاً صالحًا فإنما أحب الله ومن ذهب إلى علم يتعلمه فهو في طريق الجنة حتى يرجع.

عن مكحول قال: من أحيى ليلة في ذكر الله أصبح كيوم ولدته أمه.

عن مكحول قال: من قال استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت له ذنوبه ولو كان فارًا من الزحف.

عن مكحول قال عينان لا يمسهما العذاب عين بكت من خشية الله وعين باتت من وراء المسلمين.

عن مكحول قال: المؤمنون هينون لينون مثل الجمل الأنف إن قدته انقاد وإن أنخته على صخرة استناخ.

عن مكحول قال: إن كان الفضل في الجماعة فإن السلامة في العزلة.

قال مكحول: يقول لا يأتي على الناس ما يوعدون حتى يكون عالمهم فيهم أنتن من جيفة حمار.

عن مكحول قال: أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ قال بكر: وكان يقال الجائع الظمآن أفهم للموعظة وقلبه إلى الرقة أسرع وكان يقال

(1) حلية الأولياء، 5 / 184 - 188.

كثرة الطعام تدفع كثيرًا من الخير.

عن مكحول قال: التقيا يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم عليهما السلام فضحك عيسى في وجه يحيى وصافحه فقال له يحيى: يا ابن خالتي مالي أراك ضاحكًا كأنك قد أمنت فقال له عيسى: يا ابن خالتي مالي أراك عابسًا كأنك قد يئست فأوحى الله عز وجل إليهما عليهما السلام إن أحبكما إلي أبشكما بصاحبه.

عن مكحول قال أربع من كن فيه كن له وثلاث من كن فيه كن عليه فأما الأربع اللاتي له فالشكر والإيمان والدعاء والاستغفار قال الله تعالى:{مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ} [النساء: ١٤٧] وقال:{وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: ٣٣] وقال:{مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ} [الفرقان: ٧٧] وأما الثلاث اللاتي عليه فالمكر والبغي والنكث قال الله تعالى:{فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ} [الفتح: ١٠] وقال:{وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ} [فاطر: ٤٣] وقال:{إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم} [يونس: ٢٣].

عن مكحول في قوله تعالى:{وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الأحزاب: ٥] قال: وضع عنهم الإثم في الخطأ ووضع المغفرة على العمد.

عن مكحول قال:كان من دعاء داود عليه السلام: " يا رازق الغراب في عشه " وذلك أن الغراب إذا فقس عن فراخه فقس عنها بيضاء فإذا رآها كذلك نفر عنها فتفتح أفواهها فيرسل الله عليها ذبابًا يدخل أفواهها فيكون ذلك غذاء لها حتى تسود فإذا أسودت انقطع الذباب عنها فعاد الغراب إليها فغذاها.

عن مكحول قال: إذا كان في أمة خمسة عشر رجلاً يستغفرون الله كل يوم خمسًا وعشرين مرة لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامة.

عن مكحول في قوله تعالى:{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾} [الانشقاق: ١٩] قال تكونون في كل عشرين سنة على حال لم تكونوا على مثلها.

عن مكحول قال: من طابت ريحه زاد في عقله ومن نظف ثوبه قل همه.

عن مكحول قال: لا تعاهدوا السفيه ولا المنافق فما نقضوا من عهد الله أكبر من عهدكم.

قال مكحول: بر الوالدين كفارة للكبائر ولا يزال الرجل قادرًا على البر ما دام في فصيلته من هو أكبر منه [1].

أن الرجل يعمل في السر، فيطلبه الشيطان حتى يتحدث به، فيمحى من السر ويكتب في العلانية، ثم يطلبه الشيطان حتى يرائي به، فيمحى ويكتب عليه.

من ستر مخزاة على المؤمن ستره الله يوم القيامة.

كان مكحول إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون.

من أوى إلى فراشه ثم لم يتفكر فيما صنع في يومه، فإن عمل خيراً حمد الله، وإن أذنب استغفر الله، كان كالتاجر الذي ينفق ولا يحسب حتى يفلس ولا يشعر [2].

روي عن مكحول أنه قال: من زار بيت المقدس شوقًا إليه، دخل الجنة وزاره جميع الأنبياء في الجنة وغبطوه بمنزلته من الله تعالى؛ وأيما رفقة خرجوا يريدون بيت المقدس، شيعهم آلاف من الملائكة: يستغفرون لهم ويصلون عليهم، ولهم مثل أعمالهم إذا انتهوا إلى بيت المقدس، ولهم بكل يرم يقيمون فيه صلاة سبعين ملكًا؛ ومن دخل بيت المقدس طاهرًا من الكبائر، تلقاه الله بمائة رحمة إلا ولو قسمت على جميع الخلائق لوسعتهم؛ ومن صلى في بيت المقدس ركعتين يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وكان له بكل شعرة على جسده

(1) حلية الأولياء، 5 / 184 - 188.
(2) الزمخشري، ربيع الأبرار، ص 62، 121، 156، 432، 476،.

حسنة؛ ومن صلى في بيت المقدس أربع ركعات، مر على الصراط كالبرق وأعطى أمانًا من الفزع الأكبر يوم القيامة؛ ومن صلى في بيت المقدس ست ركعات، أعطى مائة دعوة مستجابة، أدناها براءة من النار، وجبت له الجنة؛ ومن صلى في بيت المقدس ثمان ركعات، كان رفيق إبراهيم خليل الرحمن؛ ومن صلى في بيت المقدس عشر ركعات، كان رفيق داود وسليمان في الجنة؛ ومن استغفر للمؤمنين والمؤمنات في بيت المقدس ثلاث مرات، كان له مثل حسناتهم، ودخل على كل مؤمن ومؤمنة من دعائه سبعون مغفرة، وغفر له ذنوبه كلها.

- عن مكحولٍ رضي الله عنه أنه كان يدعو في الضالة: اللهم هادي وراد الضوال اردد علي ضالتي ولا تعنني بطلبها ولا تفجعني بمصيبتها فإنها من رزقك وعطائك.

وكان يقول في الآبق: اللهم ضيق عليه البلاد واجعله في أضيق من ضرورة الحمل حتى ترده [1].

قال مكحول: يهب على أهل النار ريح كريهة فيقولون يا ربنا ما وجدنا ريحا أنتن من هذا فيقال لهم هذا ريح الزناة.

قال مكحول: ذكر الله تعالى شفاء، وذكر الناس داء.

قال مكحول التابعي رضي الله عنه: إذا تصدق المؤمن استأذنت جهنم أن تسجد له شكرا على خلاص واحد منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من عذابها وقال صلى الله عليه وسلم :♂**اتقوا النار ولو بشق تمرة**═ [2].

قال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة

(1) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 307/1، 307/5.
(2) عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، تحقيق عبد الرحيم ماردیني، نشر دار المحبة - دار آية - بيروت - دمشق - 2001 / 2002، 112/1، 243/2، 253.

من قلبه على لسانه.

قال مكحول: أرق الناس قلوباً أقلهم ذنوباً.

قال مكحول: مَن نظف ثوبه قلَّ همُّه، ومن طابت ريحه زاد عقله، ومن جمع بينهما زادت مروءته.

قال مكحول: تفقه الرعاع فساد الدين، وتفقه السفلة فساد الدنيا.

قال مكحول: من مات وعنده مغنية لم يُصَلَّ عليه.

قال مكحول: قلت للحسن: إني أريد الخروج إلى مكة، قال: إياك أن تصحب رجلاً يكرم عليك، فيفسد الذي بينك وبينه.

عن مكحول قال: إذا دعتك أمك وأنت في الصلاة فأجب.

عن مكحول أنه كان يقول: إياك ورفيق السوء فإن الشر للشر خلق.

* * *